الوطن
أسبوعية

الفناء في العمارة العربية التقليدية

د. وليد أحمد السيد

الفناء ...عنصر معماري وحضري معا

ربما كان الفناء من أهم العناصر المعمارية في العمارة التقليدية والتي تميزت على المستويين الحضري والعمراني في ذات الوقت. وقليلة هي العناصر المعمارية في العمارة التقليدية والتي لعبت دورا مهما في التخطيط الحضري والمعماري معا، فغالب العناصر المعمارية تميزت إما على مستوى بصري أو وظيفي أو كلاهما ولكن غلب على دورها أنه كان مقتصرا على المستوى العمراني دون الحضري. أما الفناء فيمكن القول ببساطة أنه لعب أدورا متعددة على مستويي التخطيط والتصميم الحضري وعلى المستوى الفردي العمراني للمنشأ ذاته في نفس الوقت. وأدوار الفناء تراوحت بين وظيفية وجمالية متعددة شملت وظائف تنظيم الحركة ضمن بنية المبنى التركيبية، يكاد يرسمه سوى "سحر البيان" وبليغ الوصف من الأدب.

لحظات خالدة

إن لحظة الدخول عبر دهاليز متعرجة والتنقل عبر أروقة معتمة تسبق فناء جامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة، قبل أن يطالع الزائر نور باهر ينبعث من صحن المسجد، والجلوس في فضاء الصحن الساكن، وما يجاوره من إيوانات، بعد الصلاة أو قبلها، في خضم معترك الحياة الصاخبة في قلب القاهرة القديمة .هذه اللحظة، أو اللحظات، يصعب توصيفها بالكلمات. ولحظة الدخول عبر قصبة القاهرة الفاطمية، وفضاءاتها التي تموج بالحياة والصخب والضجيج، ثم التنقل تدريجيا عبر مدخل منكسر يفضي لفناء بيت السحيمي أو بيت الذهبي حيث الخضرة والسكون والظل، هي لحظة ما بعدها لحظة، تجسد تحرر البيت التقليدي، بخصوصيته الساحرة والمطلوبة، والمتميزة، من أدران الحياة ومعتركها لتوفير "منتجع حضري" لأهل البيت ومالكية من كبار التجار في ذلك العصر. وهكذا فلم يأل المعمار آنئذ جهدا في توفير ما يمكن للمال شراؤه في ذلك الوقت من خصوصية ورفاهية وجمال عمران وحسن تصميم وظيفي في المسكن التقليدي . وإن كان الموقع حضريا يموج ويعج ويضج بالحياة الصاخبة.

رمزية الفناء في العمارة العربية التقليدية

ولموقع وأهمية الفناء في العمارة العربية التقليدية، سواء في البيوت التراثية أو الأبنية العامة والخاصة الأخرى، فقد الصقت به معاني رمزية وأصبح دالّة على أكثر من وظيفته أو شكله. فنظرا لانفتاحه على السماء وحركة الشمس الدؤوبة نهارا وليلا، فقد أصبح هذا العنصر بمثابة "رئة" المبنى التقليدي، حيث يتجدد الهواء ويتغير المشهد ظلا ونورا على واجهاته الأربع بتغير الوقت أثناء ساعات النهار. كذلك فقد أصبح دلالة ورمزا للسكينة والهدوء والإنسجام مع "الطبيعة" التي تم جلبها لقلب البيت من خلال الماء والخضرة "والوجه الحسن" حيث بات الفناء برمزيته "خصوصية الخصوصية" لحريم الدار وقاطنيه، لا يكدر هدوءه ولا صفاءه، أو يخدش انسجامه، أو "يكسر" قلب الدار ما يجري من أكدار الحياة خارجا، فهو بمثابة "الحصن الهادئ" بعيدا عن أكدار التجارة والحروب والأعمال التي تدور في قصبات المدينة أو خارج أسوارها والدروب المؤدية منها إلى الأقاليم الخارجية والمدن المجاورة فالأمصار وما يليها من محيطات أو بحار. وبهذه المعاني، كان الفناء بفضاءه والأحيزة المنسابة منه وإليه، بمثابة جوهر الدار، لا ينساب إليه فضاء آخر ويدخل عليه دون استئذان، بل هناك تدرج من العام فالمغلق المتكسر انتهاء بالخاص ومنه تنساب الفضاءات الحضرية حتى تنتهي بأخص الخاص. هناك مراتب ودلالات وتراتبية متدرجة، فلكل فضاء حضري حول الفناء ومنه وإليه "مقام معلوم"، من خلاله تترتب الوظائف وتتحدد المراتب والمقامات، وفيها تنطلق الأنشطة بحسب موقع الفضاء الحضري داخل البيت، ومن خلالها تتحدد آليات "الإستئذان" والدخول والتلاقي بين العام وبين الخاص، بين القاطنين وبين الزوار، بين الكبار وبين الصغار.

الفناء كمنظومة "عضوية" في العمارة العربية التقليدية

لقد انتشر استعمال الفناء في العمارة العربية التقليدية المنتشرة على طول ارجاء العالم العربي شرقا وغربا. و لم يقتصر هذا الاستخدام على نمط معين من المباني دون آخر، بل نراه في كافة المباني التقليدية ابتداء من البيوت والابنية الخاصة الى المباني العامة كالمساجد والمدارس وسواها. وفي الوقت الذي يعزو فيه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين انتشار استخدام الفناء الى أسباب مناخية وأخرى اجتماعية، يسجل البعض الآخر أن الفناء "كنمط" بنائي تخطيطي شاع وانتشر بناء على مبدأ الاعراف البنائية التي تنتقل عبر الأجيال وفي البيئة الإجتماعية والبيئية بحيث انعكس مباشرة على النسيج العمراني الحضري في البيئة التقليدية. واللافت أن تأثير هذا العنصر التخطيطي والحضري والمعماري لم يقتصر فقط على البيئة التقليدية تاريخيا، إذا امتد أثره وسحره لواقع العمارة العربية المعاصرة، وبخاصة بين أوساط المعماريين المنتمين للتراث والعمارة التقليدية، رغم تبدل وتحور القوانين التشريعية الخاصة بالبناء، وحيث تشيع قوانين بنائية معاصرة تركت بصمات واضحة على البنية التخطيطية للمدينة العربية الحديثة – تعتمد ترك "ارتدادات" حول المباني، غيرت بشكل استراتيجي وجوهري من بنية النسيج الحضري بين مدينة الماضي ومدينة اليوم.

ونظرا لهذه التغييرات البنيوية الأساسية والجوهرية في طبيعة التشريعات والقوانين الناظمة بين النسيج الحضري التقليدي وبين ما ينتج في مدن اليوم، ولأن بعض المعماريين ما زال يعمد لاستعمال الفناء على مستوى تخطيط المبنى الواحد اليوم، فمن الجدير ملاحظته أن الفناء قد فقد إحدى ميزاته المهمة والأساسية، التي ذكرنا أعلاه فيما يخص البيئات التقليدية، وهي أنه جمع، كعنصر متفرد في العمارة التقليدية، بين قدرته على "تصميم المبنى المعماري وتخطيط المحيط الحضري في ذات الوقت". فبينما كان الفناء يرسم ملامح البنية التركيبية للبيت التقليدي، كان أيضا يرسم ملامح النسيج الحضري للمدينة العربية وبشكل فريد. ولذلك فإن المتتبع لأثر ودور الفناء في العمارة المعاصرة في البيئات العربية والمدن والتجمعات الحضرية يلاحظ إما غياب كامل لهذا العنصر من التصاميم المعاصرة، أو يلاحظ، بأحسن الأحوال، أنه قد تم استعماله لغاية التشكيل المعماري حيث تلتف حوله العديد من الفضاءات التي تستمد "نورها وهواءها" من المحيط الخارجي، وبحيث غدا الفناء المغلق بنوافذ زجاجية داخلية تطل عليها الفضاءات الداخلية بمثابة "منور" أو "بئر مغلق" داخلي على مستوى بصري تشكيل أكثر منه، وظيفي أو حتى جمالي. ويبرز التناقض الكبير في استعمال الفناء بين الأمس واليوم في نقطة مهمة، تتعلق أساسا "بعلاقة الفناء العضوية" بفضاءات البيت الأخرى، وهي منبع وسر قوته ودوره داخل المبنى، والتي يغفل عنها الكثير من معماريي اليوم. وفي دراسة علمية أجراها كاتب هذه السطور، بتتبع علاقة الفناء داخل مجموعات من البيوت التقليدية في خمسة مدن عربية هي القاهرة وبغداد وتونس وصنعاء والسلط، ومقارنتها بأعمال لحسن فتحي وراسم بدران، خلصت الدراسة عموما إلى النتيجة المذكورة مع استثناءات يسيرة لا تشكل "منهجية" تذكر.

فالفناء، عمل في البيئة التقليدية، على المستوى المعماري للمبنى الواحد، وعلى المستوى الحضري التخطيطي، ضمن "منظومة فراغية" لا يمكن بحال أن تؤخذ مجزوءة مطلقا. وللفناء أدوار أجتماعية ومناخية مهمة تعمل معا "كمنظومة" أيضا، فالمناخ والبعد الإجتماعي متلازمان ولأولهما أثر مباشر على الثاني وطبيعة استعمال المبنى، بدورات الزمن القصيرة والمتوسطة والطويلة. فالفناء كان انعكاسا لظروف وأحوال مناخية، حيث أسهم بتوفير منطقة وسطية، غالبا مركزية، ضمن المبنى التقليدي تتميز بفرق ضغط ودرجة حرارة مختلفة عن مجاوراته من أحيزة فراغية، بما يسمح بانتقال الهواء عبر المبنى وتوفير نسيم هوائي يساعد على تلطيف درجات الحرارة. بيد أن الفناء لوحده لم يلعب هذا الدور ضمن المبنى التقليدي، إذ ثمة عناصر أخرى كان لها دور متكامل ضمن المبنى كمنظومة مجتمعة معا وهي الأحيزة الفراغية المتعددة المحيطة بالفناء وغالبا ما تكون شبه مغلقة أو مسقوفة. وهذه الأحيزة تقع اما على نفس الدور الارضي أو على دور علوي يشرف على الفناء. ومن هذه العناصر والأحيزة: "الايوان" – والذي ظهر عموما في المباني العامة كالمساجد والمدارس وبعض الوكالات. وهذا العنصر المعماري يقع على أحد أو كلا محوري الفناء بحيث يتيح إمكانية الجلوس فيها وحول الفناء تبعا لحركة الشمس اليومية، فضلا عن دلالاته الرمزية كما في المساجد المملوكية وعلاقة عدد الإيوانات بالمذاهب السنية الأربعة في مواجهة المد الشيعي في شمال إفريقيا. وفي حالات خاصة كان الإيوان في بعض المباني العامة قد صمم على طابقين بشكل يتيح للجالس أن يطالع الفناء رأسيا من موقعين كما في بعض المدارس العراقية كالمستنصرية أو بعض المساجد في إيران والهند.

وللفناء وإيواناته الأربعة المحيطة، في المباني العامة، أو العناصر المرتبطة به التي سنذكرها تاليا في المباني التقليدية الخاصة، علاقة رمزية ووظيفية تتبع حركة الشمس وفكرة الظل والنور، لأهمية الظل كما النور في تغيير المشهد المعماري والحضري وإضفاء طابع الحركة والحيوية على المشهد زمنيا، فلا يتسرب الملل أو السأم لقاطن الفناء، بل يصبح الظل علامة ودالة زمنية تتيح معرفة الوقت من النهار. والمتأمل في العمارة التقليدية يجد عبقرية المعمار المسلم في إدراك هذه الخصيصة وعكسها في المباني التي نراها بطريقتين: الأولى من خلال التتابع البصري غير المباشر بواسطة المدخل المنكسر المؤدي الى الفناء حيث يقود النور المنبعث من الفناء الزائر عبر الردهات المعتمة التي تسبق الفناء، والثانية من خلال إتاحة إمكانية انتقال أهل الدار عموديا وأفقيا حول الفناء تبعا لحركة الشمس يوميا وفصليا بتوفير احيزة فراغية متعددة رأسيا وافقيا.

وفي المباني التقليدية الخاصة كالمساكن هناك عنصر حيوي آخر يعمل في "منظومة الفناء" العضوية، وهو "الدرقاعة" أو قاعة الدار، والتي يعلوها ما يسمى "الشخشيخة" كنظام تسقيف متميز يتيح للنور التسلل بهدوء إلى القاعة الداخلية التي تعلو على طابقين وتسمح للنساء بالجلوس في الأعلى وتتبع ما يجري من أحداث ومسامرات وأشعار ومداخلات مع التمتع بخصوصية لهن. كذلك فإن للعنصر المعماري داخل البيت التقليدي، "الشخشيخة" دور بالسماح للهواء بالدخول الى فراغ القاعة، كما تسمح بالتحكم بدخول أو خروج الهواء تبعا لفكرة فرق الضغط بين مناطق الظل والنور بالبيت. وبذا تؤدي لدى اتصالها فراغيا مع الفناء الى تحريك الهواء داخل البيت وتلطيف درجات الحرارة العالية التي غالبا ما سادت البيئة التقليدية. كما تتصل احيانا بعنصر فراغي ثالث هو "ملقف الهواء" كما يعرف في مدن شمال افريقيا، أو "البادجير" في دول الخليج العربي. وملقف الهواء يفتح من ناحية واحدة غالبا لالتقاط الهواء البارد الى داخل البيت، فيما يفتح البادجير على أكثر من ناحية. واذ يمتد ملقف الهواء أو "البادجير" الى أكثر من دور رأسي لالتقاط الهواء البارد، فقد اهتدى قاطنو تلك المناطق الحارة الى وضع جرة من الماء أسفل الملقف لتعمل "كثلاجة طبيعية" لتزويد الماء البارد، فضلا عن "ثلاجة" أخرى ابتكرها قاطنو البيوت التقليدية والتي اشتقت اسمها من الوظيفة التي تؤديها، وهي عنصر معماري لتكسية الفتحات وتدعى "المشربية" بمدن شمال افريقيا، وتسمى "الشناشيل" في العراق، والتي تؤدي وظائف أخرى أغلبها الخصوصية البصرية لأهل الدار.

وبالإضافة لذلك نجد عناصر وأحيزة فراغية أخرى متصلة اتصالا مباشرا بالفناء مثل فضاء على الطابق الأرضي يطلق عليه اسم "التختبوش"، وهو حيز فراغي في الجهة الخلفية للفناء يؤدي وظائف اجتماعية وقد اشتق اسمه من وظيفته إذ يعكس الخصوصية البصرية والاجتماعية للجالسين، في مأمن من غارات الدخلاء أو الزوار المفاجئة بما يمكن أن يقطع صفو الجلسة أو "الخلوة" لأهل الدار. وأحيانا قد يتصل بجداره الخلفي بحديقة خلفية كما نرى في بيت السحيمي بالقاهرة مثلا. ولا تخفى اهمية الاتصال الفرغي بين الفناء المكشوف وبين التختبوش المغطى المتصل بالحديقة في جريان نسيم هوائي عليل في الصيف، وبخاصة مع توفر مسحة من غطاء نباتي بين الحديقة الخلفية وبين الفناء مع وجود "فسقية الماء" التي تتوسط أرضية الفناء. كذلك يتصل بالفناء على الطابق العلوي فضاء متميز لجلوس أهل الدار يطلق عليه "المقعد"، كما في بيوت القاهرة التقليدية مثل بيت الذهبي أو السحيمي، ويتصل بالفناء بصريا.

خاتمة: الفناء بين الأمس واليوم

من ذلك كله نجد أن الفناء كان مرتبطا في العمارة العربية التقليدية بحلقة وسلسلة فراغية تعمل معا كمنظومة فراغية بيئية واجتماعية، وهي ما يشكل سر ابداع وتفوق العمارة التقليدية على ما نراه حاليا في العمارة العربية المعاصرة. وإذ يلاحظ المتأمل أن بعض المعمارين العرب المعاصرين يلجأون لاستعارة "الفناء"، بشكل مجزوء، في بيئة مبنية مغايرة في قوانينها التخطيطية والمناخية والإجتماعية للبيئة التي يقتبس منها، فمثله كمثل من يأخذ من الآلة قطعة بمعزل عن بقية القطع التي تعمل معا. ولعل في مقولة (لوكوربوزييه) الشهيرة (البيت هو آلة للعيش فيها) ما يعكس هذا المفهوم "للمنظومة الفراغية" التي يشكل الفناء، عنصرا واحدا فقط، وإن كان مهما جدا، من عناصرها، بما يحاكي "الآلة الدافعة" التي تكمن وراء فكرة "الماكنة" وميكانيكا السيارة. فمن الخطأ، وما ينافي أبسط قواعد وقوانين الفيزياء التعامل مع قوة أو عنصر ما بمعزل عن المحيط. وهنا نتساءل: كيف يمكن أن يعمد معمار الى استعارة عنصر وحيد من "منظومة" واستعماله بشكل سطحي، بصري أو تشكيلي محض؟ أليس في الموروث التقليدي، لو أحسن المعماريون والباحثون دراسته والاستفادة منه ككل متكامل، ومنظومة وظيفية، مندوحة عن هذه الاستعارات "البتراء"؟.■